المطلب الثاني عشر

نداء الأعلام

ويتضمن:

أولًا: توطئة للتَّعريف بالعلم في الخطاب القرآني.

ثانيًا: نداء الأنبياء عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم.

ثالثًا: مقاصد النداء بصيغة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

رابعًا: ما ولي نداء النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في القرآن.

خامسًا: إجمال ما يستفاد من المعاني التي تضمَّنتها آياتُ النِّداء للنَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

سادسًا: إجمال ما يستفاد من نداء الرسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ.

سابعًا: نداء من اختلف في نبوته (لقمان – مريم) عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ.

ثامنًا: نداء (مالك) عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ من الملائكة.

تاسعًا: نداء بقية الأعلام.

عاشرًا: نداء المخلوقات الأخرى غير الجمادات.

الحادي عشر: نداء الجمادات.

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

أولًا: توطئة للتَّعريف بالعلم في الخطاب القرآني:

العلم نوعان: جنسيٌّ، وسيأتي، وشَخصيٌّ، وهو اسمٌ يعين مسمَّاه تعيينًا مطلقًا[1].

فخرج بذكر (التَّعيين): النَّكرات، وبذكر (الإطلاق)-ما عدا العَلَم من المعارف- فإنَّ تعيينها لمسمَّياتها تعيينٌ مقيَّد، ألا ترى أن ذا الألف واللَّام مثلًا إنما تعيَّن مسمَّاه ما دامت فيه (أل)، فإذا فارقته فارقه التَّعيين. ونحو هذا إنما يعيِّن مسمَّاه ما دام حاضرًا، وكذا الباقي[2].

ومسمَّاه نوعان:

الأول: العلم الشَّخصي:

١ - أولو العلم من المذكَّرين والمؤنَّثات:

وما ورد في الخطاب القرآني من هذا النَّوع : أعلام الأنبياء والرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والملائكة، مثل: (مالك) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -كما سيأتي- ، وأعلام الصَّحابة كعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأعلام النِّساء كمريم ابنة عمران عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وأسماء الكفَّار مثل: (قارون) -كما سيأتي-، ويشمل (علم الأشخاص) الاسم والكنية واللَّقب، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الألفيَّة):

(واسمًا أتى وكنية ولقبًا***)[3].

---

(١) قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(اسم يُعَيِّنُ المسَمَّى مطلقا***عَلَمُهُ كجعفر وخِرْنِقا)

ألفيَّة ابن مالك، العَلَم (ص:١٣). "قوله: (مُطْلَقا)، أي: بلا قيد التَّكلم أو الخطاب أو الغيبة، فالاسم: جنس يشمل النَّكرة والمعرفة، و(يعيِّن مسمَّاه) أخرج النَّكرة، و(بلا قيد) أخرج بقيَّة المعارف كالمضمر؛ فإنَّه يعيِّن مسمَّاه بقيد التَّكلم كأنا أو الخطاب كأنت أو الغيبة كهو" شرح ابن عقيل (١/١١٨).

(٢) بتصرُّف عن (أوضح المسالك) (١/١٢٢- ١٢٣).

(٣) ألفيَّة ابن مالك، (العَلَم) (ص:١٣).

والمراد بالاسم هنا: ما ليس بكنية ولا لقب كزيد، وبالكنية: ما كان في أوَّله أبٌ أو أم كأبي لهب، وباللقب ما أشعر بمدحٍ كالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وكإسرائيل، وذي القرنين، أو ذمٍّ كأنف النَّاقة[1].

٢ – **أعلامُ القبائل:** كعاد، وثمود، ومدين، وأصحاب الأيكة، وسبأ، وأصحاب الرَّس، والرُّوم، ونحو ذلك.

٣ – **أعلام البلاد والأمكنة في الدُّنيا:** كمكَّة، والمدينة، ويثرب، وحنين، ومصر، ونحو ذلك.

٤ – **أعلام الأماكن الأخرويَّة:** كالفردوس، والجنَّة، والنَّار، والأعراف، والبرزخ، والكوثر، وسدرةُ المنتهى، والحور العين.

٥ – **أعلام الكواكب والنُّجوم والشُّهب:** كالشَّمس، والقمر، والشِّعرى، والشِّهاب.

٦ – **أعلام الطيور:** كالهدهد، والطَّير الأبابيل[2].

وغير ذلك ممَّا سيأتي بيانه.

الثاني: العلمُ الجنسي:

العلم الجنسي ليس كاسم الجنس في المعنى، بل هو معيِّنٌ لمسمَّاه، لكن ليس تعيينًا مطلقًا، بل كتعيين ما دخلت عليه (أل) الجنسية، وذلك أنكَ تقول: (هذا أسامة) تقصد به واحدًا من الأسود لا تقصد به أسدًا بعينه، فهذا لفظٌ صالح لكلِّ أسد. وسمِّي (علم جنس)؛ لأنَّه موضوع لكلِّ فرد من أفراد الجنس، فـ (أسامة) لكلِّ أسد، و(ثُعَالة) لكلِّ ثعلب.

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل (١/١١٩).

(٢) انظر: الشَّواهد على القواعد من (ص:١١١-١١٦).

والحاصل أنَّه اسمٌ يُعَيِّنُ مُسَمَّاه، بغير قيدٍ تَعْيين ذِي الأَدَاة الجِنْسِيَّةِ أو الحُضُورِيَّة، فإذا قُلتَ: (أسامةُ أجرأ من ثُعالَةَ)، فهو بمنزلةِ قولِك: (الأَسَدُ أجرَأُ مِنَ الثَّعلَب)، و(أَلْ) في الأسد والثَّعلب للجنس.

وإذا قلت: (هذا أسامَةُ مُقْبِلًا) فهو بمنزلَةِ قَولِك: (هذا الأسدُ مُقْبِلًا)، و(أَلْ) في (الأسد) لِتَعْرِيفِ الحُضُورِ[1].

وهو أنواع:

١ – **أعيان:** كإنسان، وبقرة، وذئب، وحوت، ونمل، ونحل، وعنكبوت، وجراد، وكفرعون لكلِّ من ملك (مصر)، ونحو ذلك.

٢ – **أمور معنويَّة:** "كسبحان للتَّسبيح"[2].

وينقسم العلم إلى اسم وكنية ولقب.

أمَّا (الاسم) فقد سبق التَّمثيل له، وكذلك الكنية واللَّقب.

ثانيًا: نداء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في القرآن الكريم:

وأذكر هنا (نداء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) في القرآن الكريم مرتَّبة على حسب التَّرتيب الزَّمني:

١ – نداء آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو قسمان :

القسم الأوَّل: نداء الله عَزَّوَجَلَّ له:

[البقرة:٣٣، ٣٥]، [طه:١١٧].

القسم الثَّاني: نداءٌ من إبليس له:

---

(١) انظر: قطر النَّدى (ص:٩٧)، وانظر: تعجيل النَّدى (ص:١٠٢-١٠٣)، شذور الذَّهب (ص:٢٩٠)، أوضح المسالك (١/١٣٢– ١٣٣).

(٢) انظر: أوضح المسالك (١/ ١٣٣).

[طه:١٢٠].

٢ – نداء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو قسمان:

القسم الأوَّل: نداء من الله عَزَّوَجَلَّ له:

[هود:٤٦، ٤٨].

القسم الثَّاني: نداء قومه له:

[هود:٣٢]، [الشُّعراء:١١٦].

٣ – نداء هود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في موضع واحد من قومه:

[هود:٥٣].

٤ – نداء صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في موضعين من قومه:

[الأعراف:٧٧]، [هود:٦٢].

٥ – نداء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: نداء الله عَزَّوَجَلَّ له:

[هود:٧٦]، [الصَّافات:١٠٤].

القسم الثَّاني: نداء جاء على لسان والده:

[مريم:٤٦]، [الأنبياء:٦٢].

٦ – نداء لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في موضعين من قومه:

[هود:٨١]، [الشُّعراء:١٦٧].

٧ – نداء شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في ثلاثة مواضع كلُّها من قومه:

[الأعراف:٨٨]، [هود:٨٧، ٩١].

٨ – نداء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو قسمين، ويلاحظ حذف (يا) النِّداء فيهما:

القسم الأوَّل: نداء من عزيز (مصر):

[يوسف:٢٩].

القسم الثَّاني: نداء من صاحبي السِّجن:

[يوسف:٤٦].

٩ – نداء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو ستة أقسام:

القسم الأوَّل: نداء من الله عَزَّوَجَلَّ:

[الأعراف:١٤٤]، [طه:١١، ١٧، ١٩، ٣٦، ٤٠، ٤٩، ٨٣]، [القصص:٣٠]، [القصص:٣١]، [النَّمل:٩، ١٠].

القسم الثَّاني: نداء من قومه:

[البقرة:٥٥، ٦١]، [المائدة:٢٢، ٢٤]، [الأعراف:١١٥، ١٣٤، ١٣٨].

القسم الثَّالث: نداء من فرعون:

[الإسراء:١٠١]، [طه:٥٧].

القسم الرَّابع : نداء من السَّحرة:

[طه:٦٥].

القسم الخامس: نداء من القبطي:

[القصص:١٩]

القسم السَّادس: نداء من النَّاصح له (مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه):

[القصص:٢٠]

ويلاحظ أن مجموع نداءات موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في (أربعة وعشرين) موضعًا.

١٠ – نداء هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

في موضع واحد من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

[طه:٩٢]

١١ – نداء زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

وهو في موضع واحد من الملائكة:

[مريم:٧]

١٢ – نداء عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

وهو قسمين:

القسم الأوَّل: نداء من الله عَزَّوَجَلَّ:

[آل عمران:٥٥]، [المائدة:١١٠، ١١٦].

القسم الثَّاني: نداء من الحواريين:

[المائدة:١١٢].

١٣ – نداء الرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو النَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

أمَّا (نداءُ الرَّسول) صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ففي موضعين:

[المائدة:٤١، ٦٧].

وأمَّا (نداء النَّبي) صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ففي [١٣] موضع:

[الأنفال:٦٤، ٦٥، ٧٠]، [التَّوبة:٧٣]، [الأحزاب:١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩]، [الممتحنة:١٢]، [الطَّلاق:١]، [التَّحريم:١، ٩].

وقد جاء (نداء النَّبي) صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى قومه بلفظ: (قل)، وهي على النَّحو التَّالي:

[الأنعام:١٣٥]، [الأعراف:١٥٨]، [يونس:١٠٤، ١٠٨]، [الحج:٤٩]، [الزُّمر:٣٩]، [الجمعة:٦]، [الكافرون:١].

وقد جاء (نداء النَّبي) صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على لسان الكافرين في [الحجر:٦].

وجاء وصفًا لحاله في: [المدَّثر:١]، [المزَّمل:١].

ثالثًا: مقاصد النداء بصيغة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾:

وأعرض هنا للسُّورة التي تكرَّر فيها النِّداء بصيغة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ (خمس مرَّات)، وهي (سورة الأحزاب)، فإنَّ "افتتاح السُّورة بخطاب النَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[(١)]، وندائه بوصفه مؤذن بأن الأهم من سوق هذه السُّورة يتعلَّق بأحوال النَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. وقد نودي فيها (خمس مرَّات) في افتتاح أغراض مختلفة من التَّشريع بعضها خاصٌّ به وبعضها يتعلَّق بغيره وله ملابسة به.

فالنِّداء الأوَّل؛ لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربِّه عَزَّوَجَلَّ.

(١) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب:١].

والنِّداء الثَّاني[1]؛ لافتتاح غرض التَّنويه بمقام أزوجه واقترابه من مقامه.

والنِّداء الثَّالث[2]؛ لافتتاح بيان تحديد تقلُّبات شؤون رسالته في معاملة الأمَّة.

والنِّداء الرَّابع[3] في طالعَة غرض أحكام تزوجه وسيرته مع نسائه.

والنِّداء الخامس[4] في غرض تبليغه آداب النِّساء من أهل بيته ومن المؤمنات.

فهذا النِّداء الأوَّل افتتح به الغرض الأصلي لبقية الأغراض، وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربه عَزَّوَجَلَّ على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدِّين أعماله، وهو نظير النِّداء الذي في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] الآية، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة:٤١]. ونداء النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بوصف النُّبوءة دون اسمه العلم تشريف له بفضل هذا الوصف؛ ليربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره؛ ولذلك لم يناد في القرآن بغير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، أو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالذينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم:٨]، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾ [الفرقان:٣٠]، ﴿قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١]، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]، ويجيء باسمه العلم كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقد يتعيَّن إجراء العلم ليوصف بعده بالرِّسالة كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وتلك مقامات يقصد

---

(١) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا﴾ [الأحزاب:٢٨].

(٢) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

(٣) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

(٤) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ...﴾ [الأحزاب:٥٩].

فيها تعليم النَّاس بأنَّ صاحب ذلك الاسم هو رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو تلقين لهم بأن يسمُّوه بذلك ويدعوه به، فإنَّ عِلم أسمائه من الإيمان لئلَّا يلتبس بغيره.."[1].

رابعًا: ما ولي نداء النَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في القرآن:

جاء النِّداء للنَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في القرآن الحكيم -كما سبق- في (سبعة عشر) موضعًا جاء في غالبها بعد النِّداء الطَّلب، ففي (عشرة) مواضع منها جاء بعد النِّداء الأمرُ، وهي قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال:٦٥].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى﴾ [الأنفال:٧٠].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة:٧٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب:١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا﴾ [الأحزاب:٢٨].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل:١-٢].

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢﴾ [المدثر:١ – ٢].

وفي موضعين جاء عقب النِّداء النَّهي، إمَّا مباشرة، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة:٤١].

وإمَّا معطوفًا على الأمر، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب:١].

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢١/٢٤٩ – ٢٥٠).

وفي موضع واحد جاء بعد النِّداء للنَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الاستفهام، وذلك في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم:١].

أمَّا المواضع التي جاء فيها بعد النِّداء الخبرُ فهي (خمسة):

وهي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة:١٢].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١].

خامسًا: إجمال ما يستفاد من المعاني التي تضمَّنتها آياتُ النِّداء للنَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

بعد النَّظر في الآيات السَّابقة يمكن أن نُقَسِّم المعاني التي تضمَّنتها هذه الآيات إلى ما يلي:

١ - الأمر بإبلاغ الرِّسالة وما يتعلَّق بها ،كالحذر من المعوِّقات مع ذكر أركان هذه الرِّسالة وصفاتِ المرسل بها والبيعة عليها.

٢ - الحثُّ على الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وتأييد الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، كبيان بعض أحكامه، مع التَّصديق بموعود الله عَزَّوَجَلَّ، والثِّقة بنصره وتأييده لرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والمؤمنين وكفايته ورعايته لهم.

٣ – الأمر بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ بفعل الطَّاعات، والبعد عن المخالفات.

٤ – بيان بعض الأحكام المتعلِّقة بالنِّساء، كتخييرهنَّ بين البقاء معه أو تخلية سبيلهنَّ، وبيان ما أحلَّ الله عَزَّوَجَلَّ له من النِّساء، وبيان بعض أحكام الطَّلاق.

سادسًا: إجمال ما يستفاد من نداء الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

أمَّا نداءُ الله عَزَّوَجَلَّ للرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهو لتبليغ الخطاب إليهم، ولبيان أهليتهم لتلقِّي الخطاب، ولتُعْلم عند المخاطَبين مكانتهم، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد اصطفاهم واختارهم من بين الخلق للتَّبليغ، فكانوا أهلًا للتَّبليغ، وأسوةً للخلق في العمل والتَّطبيق، وتفعيل ألفاظ الخطاب في الواقع..

وأما نداء الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى أقوامهم فهو لتبليغهم الخطاب، وبيانه لهم، وإفادتهم ما لا يستقلُّون بمعرفته، وقطع أعذارهم..، كما أنَّ (خطاب الرُّسل) عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيه التَّشريع والتَّنظيم لما يعتري المكلَّفين من الأحوال التي تكون محلَّ نزاع فيما بينهم..، وفي هذه التَّشريعات تنظيم لمرور الإنسان وسيره في طريق الحياة، وفيها منع الصِّدام بين المكلَّف وغيره، حماية من له من الخطر أن يصيبه هو، أو يصيب غيره من جرَّاء انطلاقه من غير قيود ولا حدود.

ولأنَّ العقل البشري إذا خلا من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ الذي جاء به الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ اشتغل تلقائيًّا بالإيمان بسواه، سيؤمن مثلًا بهواه فيتبعه على نحوٍ بهيميٍّ ليس له ضابط[1]، سيؤمن بالمال فيجعله إلهه المعبود، سيؤمن باللَّذة فيتحلَّل من كلِّ ضابط..سيؤمن بفكر فلانٍ أو فلان من شياطين الإنس، وتعصف به رياح الأهواء وتتجاذبه..إلى غير ذلك.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، أي: لا فراغ ولا يمكن أن يرتفع النَّقيضان.

(١) يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣].

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هـربوا من الرِّقِّ الـذي خلـقوا له ... فبلو برقِّ النَّفس والشَّـيطـانِ

لا ترض ما اختـاروه هم لنفوسهم ... فقد ارتضوا بالذُّل والحـرمـانِ

لو سـاوت الدُّنيا جنـاح بعوضـة ... لم يسق منها الرَّب ذا الكفرانِ[1].

ولم أتعرَّض هنا لبيان كلِّ صيغة من صيغ نداء الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لأقوامهم لكثرتها؛ ولأنَّ الهدف من بعثة الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ واحد لا يختلف، والأصول واحدة. ويدلُّ على ذلك على سبيل المثال قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـنْ رَسُـولٍ إِلَّا لِيُطَـاعَ بِـإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُـوحِي إِلَيْـهِ أَنَّـهُ لا إِلَهَ إلا أَنَـا فَاعْبُـدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، إلى غير ذلك.

سـابعًا: نـداء مـن اختلـف فـي نبوتـه (لقمـان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ):

وأمَّـا نـداء مـن قيـل: إنَّـه كـان نبيًّـا، والأكثـر على خلافـه فهـو نـداء: (لقمـان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[2].

وقد جاء النِّداء في وصيته لابنه في [لقمان:١٣].

أمَّا نداء من اختلف في نبوَّتها فهو نداء: مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ فقد ذكر البعض الإجماع على كون مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ ليست نبيَّة.

فقد قيل في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَـالَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢] قال: "كلَّموها شِفاهًا كرامةً لها،

---

(١) متن القصيدة النُّونية (ص:٣٠٨).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٢٠/ ١٣٦)، تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٣)، الدر المنثور (٥١٦/٦)، زاد المسير (٤٣٠/٣)، تفسير النسفي (٧١٣/٢)، تفسير السَّمرقندي (٣٧٠/٣)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١٩٥/٤)، الإتقان (٣٧٣/٢).

ومن أنكر الكرامة زعم أنَّ ذلك كانت معجزةً لزكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو إرهاصًا لنبوَّةِ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فإنَّ الإجماع على أنَّه عَزَّوَجَلَّ لم يستنبئ امرأةً لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٣][(١)].

وقال الحافظ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره)، قال: "يخبرُ عَزَّوَجَلَّ أنَّه إنما أرسل رسله من الرِّجال لا من النِّساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دلَّ عليه سياق هذه الآية الكريمة أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يوح إلى امرأة من بنات آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحي تشريع. وزعم بعضهم أنَّ سارة امرأة الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأمَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومريم بنت عمران أمُّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبيِّات، واحتجُّوا بأنَّ الملائكة بشَّرتْ (سارة) بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] الآية، وبأنَّ الملك جاء مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ فبشَّرها بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٢- ٤٣]. وهذا القدر حاصل لهنَّ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنَّ نبيَّات بذلك، فإن أراد القائل بنبوَّتهنَّ هذا القدر من التَّشريف فهذا لا شكَّ فيه، ويبقى الكلام معه في أنَّ هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النُّبوة بمجرَّده أم لا؟ الذي عليه أهل السُّنة والجماعة، وهو الذي نقله الشَّيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم أنَّه ليس في النِّساء نبيَّة، وإنما فيهنَّ صدِّيقات كما قال عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن أشرفهنَّ مريم بنت عمران عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا

(١) تفسير البيضاوي (١٦/٢)، وانظر: البحر المحيط، لأبي حيان (١٤٦/٣)، النسفي (٢٥٤/١)، تفسير أبي السعود (٣٥/٢).

يَـأْكُلانِ الطَّعَـامَ﴾ [المائدة:٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدِّيقة، فلو كانت نبيَّة لذكر ذلك في مقام التَّشريف والإعظام، فهي صِدِّيقة بنصِّ القرآن إلى آخر ما ذكره"(١).

وأرى أنَّ ما ذكر من دعوى الإجماع غير مسلَّم، فقد ذكر الزَّجاجُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) والقرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣) أنَّ معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ أي: اختارك، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، أي: من الكفر عن مجاهد، والحسن، والزَّجاج رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ(٤): من سائر الأدناس من الحيض والنِّفاس وغيرهما. ﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ لولادة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: عالمي زمانها. عن الحسن وابن جريج وغيرها. قيل: على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصُّور. وهو الصَّحيح على ما نبينه، وهو قول الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره. وكرَّر الاصطفاء؛ لأنَّ معنى الأوَّل: الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثَّاني: لولادة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وقد قال رسول اللَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**))(٥). والكمال هو التَّناهي والتَّمام، ويقال في ماضيه: (كَمُل) -بفتح الميم وضمها، و(يَكمُلُ) في مضارعه -بالضَّم-. وكمال كلِّ شيء بحسبه، والكمال المطلق إنما هو لله عَزَّوَجَلَّ خاصَّة، ولا شكَّ أنَّ أكمل نوع الإنسان الأنبياء، ثمَّ يليهم الأولياء من الصدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين..(٦).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٤٢٣)، وانظر: لوامع الأنوار البهيَّة (٢/٢٦٦)، فتح الباري، للحافظ ابن حجر (٦/٤٤٧- ٤٧٣)، عمدة القاري (٧/١٢)، (٢٣/٣٤٩)، غمز عيون البصائر (٣/٣٩٣)، البداية والنِّهاية (٢/٧١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١/٤١٠).

(٣) تفسير القرطبي (٤/٨٢-٨٤).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١/٤١٠).

(٥) أخرجه البخاري [٣٤١١، ٣٤٣٣، ٣٧٦٩، ٥٤١٨]، ومسلم [٢٤٣١].

(٦) بتصرف واختصار عن (تفسير القرطبي) (٤/٨٢- ٨٤). وانظر أيضًا: تفسير القرطبي لكلٍّ من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف:١٠٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانا شَرْقِيًّا﴾ [مريم:١٦].

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قلت: دعوى الإجماع عجيب، فإن الخلاف في نبوة نسوة موجود، خصوصا مريم، فإن القول بنبوتها شهير، بل مال الشيخ تقي الدين السبكي في الحلبيات إلى ترجيحه، وقال: إن ذكرها مع الأنبياء في (سورة الأنبياء) قرينة قوية لذلك"[1].

ورأي الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه زيادة في التَّفصيل والتَّحقيق، وهنا أختصر ما قاله مع التَّعقيب: قال: "واستدلَّ بهذه الآية من ذهب إلى نبوَّة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ تكليم الملائكة يقتضيها، ومنعه اللَّقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ..الخ. وادَّعى أنَّ من توهَّم أنَّ النُّبوة مجرَّد الوحي ومكالمة الملك فقد حاد عن الصَّواب. ومن النَّاس من استدلَّ على عدم استنباء النِّساء بالإجماع، وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا﴾ [النحل:٤٣]، ولا يخفى ما فيه.

أمَّا أوَّلًا: فلأنَّ حكاية الإجماع في غاية الغرابة، فإنَّ الخلاف في نبوَّة نسوة كحواء وآسية وأم موسى وسارة وهاجر ومريم موجود خصوصًا مريم، فإنَّ القول بنبوَّتها شهير، بل مال الشَّيخ تقيُّ الدِّين السُّبكي، وابن السَّيد إلى ترجيحه، وذكر أنَّ ذكرها مع الأنبياء في سورتهم قرينة قويَّة لذلك.

وأمَّا الثَّانية: فلأنَّ الاستدلال بالآية لا يصحُّ؛ لأنَّ المذكور فيها الإرسال، وهو أخصُّ من الاستنباء على الصَّحيح المشهور، ولا يلزم من نفي الأخصِّ نفي الأعمِّ[2].

أقول: وبيان ذلك أنَّه يلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعمِّ، ولا يلزم من ثبوت الأعمِّ ثبوت الأخصِّ، وشرط موضوع الدَّليل إمَّا أن يكون مساويا لموضوع المدَّعَى أو أعمَّ منه.

وشرط محمول الدَّليل إمَّا أن يكون مساويا لمحمول المدَّعى أو أخصَّ منه، ويلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعمِّ.

ومن حيث الإجمال أقول: المحمولُ الثَّابت لموضوع أخص، أعمُّ من المحمول الثَّابت لموضوع أعم، فمثلا عندما يقال: (حضر محمَّد)، فإنَّ المحمول الثَّابت للأخصِّ أعمُّ من

---

(١) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (٢/٥٣١).

(٢) روح المعاني (٣/١٥٤–١٥٥).

أن يكون مع هذا الحضور طالب آخر أو لا، فقولنا: (حضر محمَّد) يصدق عليه عدَّة احتمالات، نقول مثلًا: (حضر محمَّد وحده)، (حضر محمَّد مع خالد)، (حضر محمَّد مع خالدٍ وعليٍّ) ...وهكذا. فهو أعمُّ من قولنا: (حضر المحمَّدان) أو (حضر المحمَّدون) أو (حضر جميعُ الطَّلبة). وبناءً على ذلك لا يلزم من نفي كونه رسولًا نفي كونه نبيًّا.

أقول: وبناءً على ما سبق فلا يوجد دليل على نبوَّتها، كما أنَّه لا يستطيع أحدٌ أن يقول: إنها ليستْ نبيَّة؛ لانتفاء الدَّليل كما سبق.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢]، والعطفُ يقتضي المغايرة. وما استدلُّوا به من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ غير منتج؛ لأنَّه أعمُّ من المدَّعى، ومن القواعد والأسس أنَّه يلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوتُ الأعمِّ، ولا يلزم من ثبوت الأعمِّ ثبوتُ الأخصِّ، وقد تقرَّر أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولا، فبينهما عموم وخصوص مطلق[(١)].

والحاصل أنَّ الخلاف إنما جرى ذكره هنا لبيان أنَّها ليست واسطة في تبليغ الخطاب على معنى أنَّها مرسلة، وهذا لا خلاف فيه.

والحاصل أنَّ القول بالإجماع مجانب للصَّواب على القول الصَّحيح في التَّفريق بين النُّبوَّة والرِّسالة، وكون مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ نَبِيَّة مختلف فيه كما ذكر القرطبيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ في (تفسيره)[(٢)].

قلت: وذلك الاختلاف يرجع إلى أنَّ هذا الأمر مسكوت عنه، لا دليل يثبته، ولا دليل ينفيه، وإن كان الإجماع صحيح على كونها ليست مرسَلة، وذلك للنَّص القرآني.

والنِّداء لمريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ أقسام:

القسم الأوَّل: نداء من زكريَّا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: [آل عمران:٣٧].

---

(١) العموم والخصوص المطلق بمعنى أن يصدقا على شيءٍ، وينفردُ الأعمُّ منهما، مثل النِّسبة بين الحيوان والإنسان، أمَّا العموم والخصوص الوجهي فهو أن يجتمعا في شيء وينفرد كلٌّ منهما في شيء، مثل النِّسبة بين الحيوان والأبيض.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/٨٣).

القسم الثَّاني: نداء من الملائكة: [آل عمران:٤٢، ٤٣، ٤٥].

القسم الثَّالث: نداء من قومها: [مريم:٢٧].

ثامناً: نداء (مالك) عَلَيْهِ السَّلَامُ من الملائكة:

في موضع واحد من أهل النَّار:

[الزُّخرف:٧٧]

ومالك عَلَيْهِ السَّلَامُ هو: هو (خازنُ جهنَّم)، أو يقال: (خازنُ النَّار)، والمعنى واحد.

وقد جاء في خطاب أهل النَّار لمالك عَلَيْهِ السَّلَامُ: مادَّة النِّداء (نَادَوْا)، وكذلك أداة النِّداء (يا) في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾.

والجمع بينهما في خطابهم يدلُّ على شدَّة ما هم فيه من الكرب والغمِّ.

وقراءة: ﴿يا مَالِ﴾ -بحذف الكاف- على التَّرخيم؛ للإشارة إلى أنَّ العذاب أوهنهم عن إتمام الكلام، ولذا قالوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾.

وفي (الكشاف): "حسَّن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم؛ لضعفهم وعظم ما هم فيه"[(١)].

---

(١) الكشاف (٤٩٦/٣)، وانظر: تفسير أبي السُّعود (٥٥/٨)، روح المعاني (١٠٣/٢٥)، تفسير البيضاوي (٩٦/٥)، تفسير الرازي (٦٤٤/٢٧). " قيل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنَّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ: (يا مَال)، فقال: ((ما أشغلَ أهلَ النَّار عن التَّرخيم)). وأجيب عنه: بأنَّه إمَّا حَسُن التَّرخيم؛ لأنهم بلغوا من الضعف والنَّحافة إلى حيث لا يمكن أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها. وقرأ أبو السَّرار الغَنَوِي: (يَا مَالُ) مَبْنِيا على الضم على لغة من لا ينوي. انظر: الكشاف (٤٩٦/٣)، روح المعاني (١٠٢/٢٥)، الدُّر المصون (١٠٧/٦)، ابن عادل (٢٩٤/١٧)، البحر المديد (٣٤/٧). وانظر قراءة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا في (تفسير الطَّبري) (٩١/١)، تفسير الثَّوري (ص:٢٧٤)، تفسير القرطبي (١١٧/١٦)، معاني القرآن، للنَّحاس (٣٨٥/٦)، التِّبيان، للعكبري (٢٢٨/٢)، تفسير الصَّنعاني (٢٠٢/٣)، جزء فيه قراءات النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ص:١٤٧)، إبراز المعاني (ص:٣٥٠). وفي (البحر): "وقرأ الجمهور: ﴿يَا مَالِكُ﴾. وقرأ عبد الله، وعليّ، وابن وثاب، والأعمش: (يا مال)، بالتَّرخيم، على لغة من ينتظر الحرف". البحر المحيط (٢٧/٨)، فتح القدير (٨٠٤/٤). وفي (زاد المسير): "وقرأ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن يعمر: (يا مالِ) -بغير كاف مع كسر اللام-". زاد المسير (٣٢٩/٧). قال=

"فإن قلت: كيف قال: ﴿وَنَـادَوْا يَـا مَالِـكُ﴾ بعد ما وصفهم بالإبلاس؛[1] قلت: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدَّة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتًا لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنَّه لا فرج لهم، ويغوِّثون[2] أوقاتًا لشدَّة ما بهم ﴿مَاكِثُونَ﴾ لابثون"[3].

وجروا على عادتهم في الغباوة والجلافة فقالوا: ﴿رَبُّكَ﴾، أي: المحسن إليك فلم يروا لله عَزَّوَجَلَّ عليهم إحسانًا وهم في تلك الحالة، فلا شكَّ أنَّ إحسانه ما انقطع عن موجود أصلًا، وأقل ذلك أنَّه لا يعذِّب أحدًا منهم فوق استحقاقه؛ ولذلك جعل النَّار دركات كما كانت الجنَّة درجات..[4].

و"جملة ﴿وَنَادَوْا﴾ حال من ضمير: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[5]، أو عطف على جملة: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

وحكي نداؤهم بصيغة الماضي مع أنَّه مما سيقع يوم القيامة، إمَّا لأنَّ إبلاسهم في عذاب جهنَّم، وهو اليأس يكون بعد أن نادوا: ﴿يَـا مَالِـكُ﴾، وأجابهم بما أجاب به، وذلك إذا جعلت جملة: ﴿وَنَـادَوْا﴾ حاليَّة، وإمَّا لتنزيل الفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقيق وقوعه تخريجًا للكلام على خلاف مقتضى الظَّاهر نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي

=الزَّجاج: وهذا يسمِّيه النَّحويون: التَّرخيم، وهو كثيرٌ في الشِّعر في (مالك)، و(عامر)، ولكنِّي أكرههما لمخالفة المصحف. معاني القرآن، للزَّجاج (٤/٤٢٠)، وانظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات الأنباري (١/٣٦١).

(١) أي في الآيات السَّابقة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزُّخرف:٧٤– ٧٦].

(٢) (غَوَّثَ الرَّجُل): قال واغوثاه. انظر: الصِّحاح، مادَّة: (غوث) (١/٢٨٩). وفي (تاج العروس):"غَوَّثَ الرَّجُل، واستغاثَ: صاح: واغَوْثَاه، وتقول: ضُرِبَ فلانٌ فَغَوَّثَ تَغْوِيثًا، قال: واغَوْثَاهُ". تاج العروس، مادَّة: (غوث) (٥/٣١٣)، لسان العرب (٢/١٧٤).

(٣) الكشاف (٣/ ٤٩٦)، روح المعاني (٢٥/١٠٢).

(٤) نظم الدُّرر (٧/ ٥٣)، وانظر: السِّراج المنير (٣/ ٦٧٩).

(٥) وتمام الآيات: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف:٧٤ – ٧٧].

الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧]، وهذا إن كانت جملة: ﴿وَنَادَوْا﴾ الخ معطوفة. و﴿مَالِكُ﴾ (المنادَى): اسم الملَك الموكَّل بجهنَّم. خاطبوه ليرفع دعوتهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ شفاعة. واللام في ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (لام الأمر) بمعنى الدُّعاء. وتوجيه الأمر إلى الغائب لا يكون إلا على معنى التَّبليغ كما هنا، أو تنزيل الحاضر منزلة الغائب لاعتبار مَّا مثل التَّعظيمِ في نحو قول الوزير للخليفة: (ليَرَ الخليفة رأيه). و(القضاء) بمعنى: الإماتة كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥]، سألوا الله عَزَّوَجَلَّ أن يزيل عنهم الحياة؛ ليستريحوا من إحساس العذاب. وهم إنما سألوا الله عَزَّوَجَلَّ أن يميتهم فأجيبوا بأنهم ماكثون جوابًا جامعًا لنفي الإماتة، ونفي الخروج، فهو جواب قاطع لما قد يسألونه من بعدُ"[1].

وإليك إجمال ما يستفاد من صيغة النِّداء ومما ولي المنادَى:

١ – الجمع في خطابهم بين مادَّة النِّداء (نَادَوْا)، وكذلك أداة النَّداء (يا) يدلُّ على شدَّة ما هم فيه من الكرب والغمِّ.

٢ – إنَّ من الملائكة من لهم مهامٌّ مختلفة لا يعصون الله عَزَّوَجَلَّ فيما أمرهم، ومن هذه المهام: ما كلِّف به (مالك) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من كونه خازنًا للنَّار.

٣ – بيان حال أهل النَّار من الضَّعف والوهن، وأنَّه لا شفاعة لهم تنقذهم أو ترفع عنهم العذاب، وأنهم لا يظلمون، بل يجزون ما كانوا يعملون في الدُّنيا.

٤ – أن ما جاء من ذكر أحوال أهل النار إنما هو من الغيبات التي لا سبيل لمعرفتها إلا عن طريق السمع، فيقتصر في ذلك على ورد من صحيح الكتاب والسنة.

٥ – إن دخولهم النار بسبب رفضهم قبول الحق واستعلائهم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٨]، ثم بين حالهم من الغفلة والانغماس في أوحال المعاصي، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾[الزخرف: ٧٩-

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢٥/٢٥٩-٢٦٠).

٨٠]. والله عَزَّوَجَلَّ ليس بغافل عما يعمل الظالمون، ولهم يوم يقفون فيه بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ويحاسبون.

تاسعًا: نداء بقية الأعلام:

وأذكر هنا عقب ما ذكر من نداء أهل الفضل والتَّشريف بقيَّة الأعلام وهم:

(إبليس، فرعون، هامان، السَّامري).

١ – نداء إبليس:

أمَّا نداء إبليس ففي موضعين من الله عَزَّوَجَلَّ:

[الحجر:٣٢]، [ص:٧٥].

وإليك بيان ما يستفاد مما ولي المنادَى:

وفي بداية الأمر يذكر الله عَزَّوَجَلَّ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إيَّاه بأمره الملائكة بالسُّجود له. ويذكر تخلُّف إبليس عدوَّه عن السُّجود له من بين سائر الملائكة، حَسَدًا وكفرًا، وعنادًا واستكبارًا، وافتخارًا بالباطل، ولهذا قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:٣٣]، ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلا قَلِيلا﴾ [الإسراء:٦٢].

وقد ذكر جمعٌ كبيرٌ من المفسِّرين ما قاله ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أنَّ أوَّل من قاس إبليسُ فأخطأ القياس، فمن قاس الدِّين بشيءٍ من رأيه قرنه الله عَزَّوَجَلَّ مع إبليس. وذكروا ما قاله الحسن وابن سيرين: ما عبدت الشَّمس إلا بالقياس[(١)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٢٧/١٢)، وانظر: القرطبي (١٧١/٧)، روح المعاني (٨٩/٨)، الدُّر المنثور (٤٢٥/٣)، الثَّعالبي (٢١٩/٤)، البغوي (١٨٢/٢)، فتح القدير (٥١٠/٣). وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما ذكره الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "..عن الحسن في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢] قال: قاس إبليس، وهو أوَّل من قاس. [قال:] إسناده صحيح..وعن ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أوَّل من=

أقول: وتوجيه خطأ إبليس في القياس أن يقال: إنَّ إبليس قد استعمل القياس في إثبات أنَّه خير من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لئلا يسجد له حينما أُمِر بالسُّجود له فيما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]. وهو قياس من الشَّكل الأوَّل[1] حذفت منه المقدِّمة الثَّانية للعلم بها. ونظمه هكذا: أنا مخلوق من النَّار، وآدم مخلوقٌ من الطِّين، وكلُّ مخلوقٍ من النَّار خيرٌ من المخلوقِ من الطِّين = أنا خيرٌ من آدم..

وقد أخطأ إبليس في قياسه؛ لأنَّ الفضل عند الله عَزَّوَجَلَّ بحسن العمل لا بشرف الأصل. فإذا سلَّمنا جدلًا أنَّ المخلوق من النَّار خيرٌ من المخلوق من الطِّين فيرد عليه ما سبق.

=قاس إبليس، وما عبدت الشَّمس والقمر إلا بالمقاييس. [قال:] إسناد صحيح أيضًا". تفسير ابن كثير (٣/٣٩٣).

(١) الشَّكل الأوَّل: ما كان الحدُّ الأوسط فيه محمولًا في الصُّغرى، موضوعًا في الكبرى، مثل: كلُّ طائرٍ حيوان، وكلُّ حيوانٍ متنفِّس = كلُّ طائرٍ متنفِّس.. وشرطه: ١- أن تكون مقدِّمته الصُّغرى موجبة..٢- أن تكون مقدِّمته الكبرى كلِّيَّة. فإن فقد الشَّرط الأوَّل وكانت الصُّغرى سالبة صدقت النَّتيجة مرَّة وكذبت أخرى، والنَّتيجة لا بدَّ أن يطَّردَ صدقُها. فلو قلنا: لا شيء من الفضَّة بذهب، وكلُّ ذهبٍ معدن، فالنَّتيجة = لا شيء من الفضَّة بمعدن، وهي كاذبة مع صدق المقدِّمتين. وإنما نشأ كذب النَّتيجة من الإخلال بالشَّرط الأوَّل، وهو إيجاب الصُّغرى. وكذلك لو فُقِد الشَّرط الثَّاني، وكانت الكبرى جزئيَّة فإنَّ النَّتيجة أيضًا تكذب، مثل: كلُّ نبات قمح، وبعض النَّبات ورد، فالنَّتيجة = بعض القمح ورد، وهي كاذبة مع صدق المقدِّمتين، وذلك لفقد الشَّرط الثَّاني، وهو كلِّيَّة الكبرى. قال صاحب السُّلَّم:

حَمْل بصغرى وضعه بكبرى ... يُدْعى بشكل أول ويدرى

ثمَّ قال:.... فشرطه الإيجاب في صغراه ... وأن تُرَى كلـــية كـــبراه

انظر: شرح الشَّيخ درويش القويسني على متن السُّلَّم في علم المنطق (ص:٣٤– ٣٥)، توضيح المنطق القديم (ص:١٠٤)، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرُّسوم (ص:١٢٥)، طرق الاستدلال (ص:٢٤٣– ٢٤٥)، الجديد في الحكمة (ص:١٧٨)، الرِّسالة الشَّمسية (ص:١٤١)، التَّذهيب (ص:٣٧٩)، مغني الطُّلاب بشرح سيف الغلاب (ص:١٦٦)، الرَّدُّ على المنطقيين (ص:٢٩٦)، تيسير التَّحرير (١/٥٨)، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب (١/٣٢٢).

أعني إن سُلِّمَ لإبليس أنَّ المخلوق من النَّار خيرٌ من المخلوق من الطِّين من حيث أصل الخلق فإنَّه يرد عليه ما سبق..كيف ولم يسلَّم له ذلك؟! فمن أين له أنَّ المخلوق من النَّار خيرٌ من المخلوق من الطِّين من حيث أصل الخلق؟! وقد علم أنَّ الإنسان المخلوق من الطِّين أفضل من الجنِّ المخلوق من النَّار..حيث إنَّ فيهم –أي: الإنس– الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين اصطفاهم الله عَزَّوَجَلَّ وفضَّلهم من بين سائر الخلق..

والحاصل أنَّ تقرير إبليس ليس حجَّة.

قال محمَّد بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "ظَنَّ الخبيثُ أنَّ النَّار خيرٌ من الطِّين، ولم يعلم أنَّ الفضل لمن جعل الله عَزَّوَجَلَّ له الفضل، وقد فضَّل الله عَزَّوَجَلَّ الطِّين على النَّار من وجوه منها: أنَّ من جوهر الطِّين الرَّزانة والوقار والحلم والصَّبر، وهو الدَّاعي لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد السَّعادة التي سبقت له إلى التَّوبة والتَّواضع والتَّضرع فأورثه الاجتباء والتَّوبة والهداية، ومن جوهر النَّار الخفَّة والطَّيش والحدَّة والارتفاع، وهو الدَّاعي لإبليس بعد الشَّقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه اللعنة والشَّقاوة؛ ولأنَّ الطِّين سبب جمع الأشياء والنَّار سبب تفرقها؛ ولأنَّ التُّراب سبب الحياة، فإنَّ حياة الأشجار والنَّبات به، والنَّار سبب الهلاك"[1].

أقول: ما أورده الطَّبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، ونقله عنه غير واحدٍ من المفسِّرين إنَّما يسلَّم له من حيث تميُّز الطِّين عن النَّار، ولكن لا يسلَّمُ له أنَّ أصل الخلق سببٌ للاستجابة أو الإعراض، أو دافع من الدَّوافع فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ كلَّ مكلَّفٍ مختارًا، ويجازى على

(١) تفسير الطَّبري (١٢/ ٣٢٧). وفي (أضواء البيان): "لا نسلِّم أنَّ النَّار خيرٌ من الطِّين، بل الطِّين خيرٌ من النَّار؛ لأنَّ طبيعتها الخفَّة والطَّيش والإفساد والتَّفريق، وطبيعته الرَّزانة والإصلاح فتودعه الحبَّة فيعطيكها سنبلة، والنَّواة فيعطيكها نخلة. وإذا أردت أن تعرف قدر الطِّين فانظر إلى الرِّياض النَّاضرة، وما فيها من الثِّمار اللَّذيذة، والأزهار الجميلة، والرَّوائح الطَّيبة. تعلم أنَّ الطِّين خيرٌ من النَّار. [وقال] إنَّا لو سلمنا تسليمًا جدليًّا أنَّ النَّار خيرٌ من الطِّين، فإنَّه لا يلزم من ذلك أنَّ إبليس خيرٌ من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع، بل قد يكون الأصل رفيعًا، والفرع وضيعًا..". انظر: أضواء البيان (١/٣٣– ٣٥)، كتب ورسائل ابن تيمية في التَّفسير (١٥/٥– ٦)، والمعنى قريب في (البحر المديد) (٢/٢٠١)، والبحر المحيط (٥/١٧)، وكذلك في (المنار) (٨/٢٩٤).

اختياره إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وإلا لكان ذلك مدخلا لكلٍّ من خلق من النَّار – وهم الجنُّ– أن يكونوا مدفوعين من أصل الخلق إلى نوازع الشرِّ.. ولا قائل بذلك، وهو ممَّا يتنافى مع الحكمة فتنبه.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ [الحجر:٣٢]، [ص:٧٥]، "وهذا يقتضي أنَّه عَزَّوَجَلَّ تكلَّم معه، فعند هذا قال بعض المتكلِّمين: إنَّه عَزَّوَجَلَّ أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله عَلَيْهِمُ‌ٱلسَّلَامُ، إلا أنَّ هذا ضعيف؛ لأنَّ إبليس قال في الجواب: ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ [الحجر:٣٣]، فقوله: ﴿خَلَقْتَهُ﴾ (خطاب الحضور) لا (خطاب الغيبة)، وظاهره يقتضي أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تكلَّم مع إبليس بغير واسطة، وأنَّ إبليس تكلَّم مع الله عَزَّوَجَلَّ بغير واسطة، وكيف يعقل هذا مع أنَّ مكالمة الله عَزَّوَجَلَّ بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب؟! فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم؟! ولعلَّ الجواب عنه أنَّ مكالمة الله عَزَّوَجَلَّ إنما تكون منصبًا عاليًا إذا كان على سبيل الإكرام والإعظام، فأمَّا إذا كان على سبيل الإهانة والإذلال فلا"[(١)].

واختُلِفَ في تَسْمِيتِهِ بـ: (إبليس) على قولين:

أحدهما: أنَّه اسم أعجميٌّ، وليس بمشتقٍّ.

والثَّاني: أنَّه اسمُ اشتقاق، اشتُقَّ من (الإبلاس)، وهو اليأس من الخَيْر، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]، أي: آيِسُونَ من الخير..."[(٢)].

والرَّاجح أنَّه اسم أعجمي، ومنعه من الصَّرف للعلميَّة والعجمة.

والإبلاس: اليأس[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (١٩/١٤٠)، انظر: ابن عادل (١١/٤٥٧)، السراج المنير (٢/٢٠١).

(٢) تفسير الطبري (١/٥٠٩)، النُّكت والعيون (١/١٠٢)، تفسير العز بن عبد السَّلام (١/٢٧)، تفسير القرطبي (١/٢٩٥)، روح المعاني (١/٢٢٩)، ابن جزي (١/٢٦١).

(٣) التَّعاريف (ص:٣١)، المصباح المنير، مادَّة: (بلس) (١/٦٠).

قال العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وزاد الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] في معنى (الإبلاس) قيد السُّكوت، ولم يذكره غيره.

والحقُّ أنَّ السُّكوت من لوازم معنى (الإبلاس) وليس قيدًا في المعنى[2].

أقول: وما ذكره قد أشار إليه الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قبله في (المفردات)، حيث قال: "ولما كان (المبلس) كثيرًا ما يلزم السُّكوت، وينسى ما يعنيه قيل: (أبلس فلان): إذا سكت، وإذا انقطعت حجَّته"[3].

وكذلك يرد ذلك –أي: ما ذكره الطَّاهر والرَّاغب رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ– على ما ذكره البقاعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (نظم الدُّرر) وغيره من "السُّكون والانكسار، والحزن والتحيُّر، وانقطاع الحجَّة والنَّدم"[4]..

وخطاب الله عَزَّوَجَلَّ لإبليس للتَّقريع والتَّوبيخ، والمعنى: أيُّ: سبب حملك على أن لا تكون مع السَّاجدين لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الملائكة، وقد أمرك الله عَزَّوَجَلَّ بذلك..، وهم في الشَّرف بالمنزلة التي قد علمتها؟.

٢ – نداء فرعون:

أمَّا نداء فرعون ففي موضعين من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

[الأعراف:١٠٤]، [الإسراء:١٠٢].

---

(١) ونص ما قاله الزَّمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الإبلاس) : أي يبقى بائسا ساكنا متحيرا. يقال: ناظرته فأبلس. إذا لم ينبس، ويئس من أن يحتجَّ. ومنه (النَّاقة المبلاس): التي لا ترغو. وقريء: (يُبْلَس) بفتح اللام، من أبلسه إذا أسكته. الكشاف (٢١٦/٣)، وانظر: البحر المحيط (٣٧٩/٨)، روح المعاني (٥٢/٢١)، البيضاوي (٢٠٣/٤). وقال الزَّمخشري في موضع آخر: "الإبلاس: اليأس من كلِّ خير. وقيل: السُّكوت مع التَّحيُّر". الكشاف (٣٨/٣). وذكر الزَّمخشري ذلك أيضًا في (أساس البلاغة) مادَّة: (بلس) (ص:٢٩)، وفي (المخصص، لابن سيده): (أَبْلَس الرجُل): سكتَ. المخصص (٢٢٩/١).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٢٥٨/٢٥).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، للرَّاغب (ص:١٤٣).

(٤) انظر: نظم الدُّرر (٥٥/١١).

وإليك بيان المعنى مع ما يستفاد مما ولي المنادَى:

"يخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن مناظرة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون، وإلجامه إيَّاه بالحجَّة، وإظهاره الآيات البيِّنات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:١٠٤]، أي: أرسلني الذي هو خالقُ كلِّ شيء وربُّه ومليكه"(١).

"وهذه محاورة من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون، وخطاب له بأحسن ما يدعى به وأحبُّها إليه؛ إذ كان مَنْ مَلَكَ (مِصْرَ) يقال له: (فرعون) كنمرود في (يونان)، وقيصر في (الرُّوم)، وكسرى في (فارس)، والنَّجاشي في (الحبشة)، وعلى هذا لا يكون فرعون وأمثاله علمًا شخصيًّا، بل يكون علم جنس كأسامة وثعالة، ولما كان فرعون قد ادَّعى الرَّبوبيَّة فاتحه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لينبِّهه على الوصف الذي ادعاه، وأنَّه فيه مبطل لا محقٌّ، ولما كان قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إلا الْحَقَّ﴾ [الأعراف:١٠٥] أردفها بما يدلُّ على صحَّتها، وهو قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ [الأعراف:١٠٥]، ولما قرَّر رسالته فرَّع عليها تبليغ الحكم، وهو قوله: ﴿فَأَرْسِلْ﴾، ولم ينازعه فرعون في هذه السُّورة في شيءٍ مما ذكره موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أنَّه طلب المعجزة. ودلَّ ذلك على موافقته لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ الرِّسالة ممكنة لإمكان المعجزة؛ إذ لم يدفع إمكانها، بل قال: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ [الأعراف:١٠٦].."(٢).

وأمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]. (الظنُّ) هنا بمعنى التَّحقيق.

و(الثُّبور): الهلاك والخسران أيضًا(٣).

قال الرَّازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثمَّ حكى تعالى أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لفرعون: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾. واعلم أنَّ فرعون قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٥٤).

(٢) البحر المحيط (٥/٤٢٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٠/٣٣٧)، أضواء البيان (٦/٢٧).

مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١]، فعارضه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال له: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾"(١).

"والظَّاهر أنَّ خطاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فرعونَ بقوله: ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ خطاب إكرام؛ لأنَّه ناداه بالاسم الدَّالِّ على الملك والسُّلطان بحسب متعارف أمَّته فليس هو بترفع عليه؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال له ولهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا﴾ [طه:٤٤]. والظَّاهر أيضًا أنَّ قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا هو أوَّل ما خاطب به فرعون كما دلَّت عليه (سورة طه)"(٢).

وهاك إجمال النَّتائج المستفادة:

١ – إنَّ الشِّرك أو الكفر هو أقبح الظُّلم، كما أنَّه كذلك أكبرُ الذُّنوب، وأشنعُ المعاصي..والذين يكفرون أو يشركون يظلمون الحقيقة الكبرى –حقيقة الألوهيَّة، وحقيقة التَّوحيد– ويظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة في الدُّنيا والآخرة.

٢ – الحكمة في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والتزام آداب البحث والمناظرة في الحوار، حيث خاطب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فرعون بخطاب الإكرام الذي ينزِّلُ المدعوَّ المنزلة اللَّائقة به في حال الخطاب والمناظرة..

٣ – إنَّ دعاة الباطل، وعلى الأخصِّ من كان له نفوذ وسلطة يظلمون النَّاس بإخراجهم من العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ الواحد إلى العبوديَّة للطَّواغيت المتعدِّدة والأرباب المتفرِّقة.

٤ – الاعتبار بالعاقبة والمآل في الدُّنيا والآخرة لمن ظلم نفسه، وأنكر حقيقة التَّوحيد، وتسبَّب في إضلال غيره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

٥ – قطع أعذار فرعون ومن تبعه بإقامة الحُجَّةِ عليهم، بالمحاورة والمناظرة، وبالمعجزات الماديَّة التي جاء بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع ذلك كفروا وجحدوا..

---

(١) تفسير الرَّازي (٤١٥/٢١)، السراج المنير (٣٤٢/٢).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٣٧/٩).

٦ – اقتداء المخاطَبين بالرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والصبر على الإيذاء في سبيل ذلك.

٧ – إن للرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ منهجا قويمًا في الدَّعوة، يتأسَّى به كلُّ داعية.

"وإنَّ الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ الواحد، والعبوديَّة لإلهٍ واحد، وإنَّ الأرض لتفسد حين لا تتمخَّض العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ في حياة النَّاس..إنَّ العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ وحده معناها أن يكون للنَّاس سيِّد واحد، يتوجَّهون إليه بالعبادة وبالعبوديَّة كذلك، ويخضعون لشريعته وحدها، فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلِّبة، وشهوات البشر الصَّغيرة!.

إنَّ الفساد يصيب تصوُّراتِ النَّاس كما يصيب حياتهم الاجتماعيَّة حين يكون هناك أربابٌ متفرِّقون يتحكَّمون في رقاب العباد –من دون الله عَزَّوَجَلَّ– وما صلحت الأرض قطُّ ولا استقامت حياة النَّاس إلَّا أيام أن كانت عبوديتهم لله عَزَّوَجَلَّ وحده – عقيدةً وعبادةً وشريعة– وما تحرَّر الإنسان قط إلَّا في ظلال الرُّبوبيَّة الواحدة. ومن ثَمَّ يقول الله عَزَّوَجَلَّ عن فرعون وملئه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٣].

وكلُّ طاغوت يُخضع العباد لشريعة من عنده، وينبذ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ، هو من المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون!"[(١)].

٨ – الحاجة في كلِّ زمان إلى الدُّعاة الذين يدعون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهم على بصيرة ودراية بأحوال المخاطَبين، واختلاف ثقافاتهم، وقدراتهم العقلية، يحسنون فنَّ المناظرة والحوار، ويتعمدون على الدَّليل والحُجَّة والبرهان الذي يقنع المخاطَبين، ويدحضُ حجج المخالفين.

٩ – أن يكون الغرض من المناظرة والحوار الوصول إلى الحق.

---

(١) الظِّلال (٩/١٣٤٥).

٣ - نداء هامان:

أمَّا نداء هامان ففي موضعين من فرعون:

[القصص:٣٨]، [غافر:٣٦].

يخبرُ الله عَزَّوَجَلَّ عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعوى الإلهيَّة لنفسه حيث دعا قومه مستخفًّا بهم، حيث لم يعملوا عقولهم، ولم يتفكَّروا كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤]، فقد جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مُصَرِّحًا لهم بذلك، ودعاهم إلى الاعتراف له بالإلهيَّة، فأجابوه سامعين مطيعين. فأجابوه إلى ذلك، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]. وقال عَزَّوَجَلَّ حكاية عن فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝٢٦﴾ [النازعات:٢٣-٢٦]. وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [القصص:٣٨]، أي: أمر وزيره هامان أن يوقد له على الطِّين، ليتخذ له آجُرًّا لبناء الصَّرح - وهو القصر المنيف الرَّفيع- كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر:٣٦ - ٣٧]؛ وذلك لأنَّ فرعون بنى هذا الصَّرح الذي لم يُرَ في الدُّنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيَّته تكذيب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما زعمه من دعوى إلهٍ غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨][(١)].

أمَّا قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾، أي: اطبخ لي الآجر، روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٢٣٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٣/٢٨٨)، تفسير ابن أبي حاتم (١٣/٨٠٨)، الدر المنثور (٦/٤١٦). قال الزَّمخشري: ولم يقل: اطبخ لي الآجر واتخذه؛ لأنَّه أوَّل من عمل الآجر، فهو يعلمه الصَّنعة؛ ولأنَّ هذه العبارة أحسن طباقًا لفصاحة القرآن، وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة. وأمر هامان وهو وزيره ورديفه=

وقال قتادة: هو أوَّل من صنع الآجر، وبنى به[1].

ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصَّرح جمع هامان العمال. -قيل: (خمسين ألف) بناء سوى الأتباع والأجراء- وأمر بطبخ الآجر والجص، ونشر الخشب، وضرب المسامير، فبنوا ورفعوا البناء، وشيَّدوه بحيث لم يَبْلغه بنيانٌ منذ خلق الله عَزَّوَجَلَّ السَّموات والأرض، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يفتنهم فيه. ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الظنُّ هنا شكٌّ، فكفر على الشَّكِّ؛ لأنَّه قد رأى من البراهين ما لا يخيل[2] على ذي فطنة[3].

ويستفاد مما ولي المنادى من قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أنه يستدلَّ بعدم الدَّليل على عدم المدلول -على حدِّ زعمه-، وهو خطأ من جهة أنَّ الدَّليل على المدلول -وهو وجود الصَّانع- أكثر من أن يحصى، ومن جهة أنَّ عدم الدَّليل لا يستلزم عدم المدلول. وأمَّا قوله: ﴿غَيْرِي﴾ فقد تكلَّف له بعضهم أنَّه لم يرد به أنَّه خالق السَّموات والأرض وما فيهما؛ فإنَّ امتناع ذلك بديهي، وإنما أراد به نفي الصَّانع والاقتصار على الطَّبائع، وأنَّه لا تكليف على النَّاس إلَّا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمره.

أمَّا قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ فقد تكلَّفوا له ههنا أيضًا، فقيل: إنَّه يبعد من العاقل أن يرومَ صعود السَّماء بآلةٍ، ولكنَّه أراد أنَّه لا سبيل إلى إثبات الصَّانع من حيث العقل -كما مرَّ-، ولا من حيث الحس؛ فإنَّ الإحساس به يتوقَّف على الصُّعود وهو معتذِّرٌ، وإلَّا فابنِ يا هامان مثل هذا البناء، وإنما قال ذلك تهكُّمًا. فبمجموع هذه الأشياء قرَّرَ أنَّه لا دليل على الصَّانع، ثمَّ رتَّب النَّتيجة عليه، وهو قوله: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يحتمل أن يريد: لأعلمه من الكاذبين. والأكثرون من

=بالإيقاد على الطِّين منادى باسمه بـ: (يا) في وسط الكلام.. دليل التَّعظيم والتَّجبر. الكشاف (٣/١٧٩- ١٨٠).

(١) انظر: القرطبي (١٣/ ٢٨٨)، الدُّر المنثور (٦/٤١٦)، معاني القرآن الكريم، للنَّحاس (٥/١٨٠).

(٢) لا يخيل: أي: لا يشكل.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨٩).

المفسِّرين على أنَّه بنى مثل هذا البناء جهلًا منه، أو تلبيسًا على مَلئِهِ حيث صادفهم أغبى النَّاس وأخلاهم من الفطن..

وإنما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ ولم يقل: اطبخ لي الآجر؛ لأنَّ هذه العبارة أحسن؛ ولأنَّ فيه تعليم الصَّنعة، وقد كان أوَّل من عمل الآجر فرعون..-كما سبق- والطُّلوع والاطِّلاع: الصُّعود. يقال: طلع الجبل واطَّلع.

وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٣٩]، يعني: أرض (مصر) ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، إشارة إلى أنَّ الاستكبار بالحقِّ إنما هو لله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ مستكبرٍ سواه عَزَّوَجَلَّ فاستكباره بغير الحقِّ[1].

وهاك إجمال النَّتائج المستفادة مما سبق:

أمَّا قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾.. فهي "كلمةٌ فاجرةٌ كافرة، يتلقَّاها الملأُ بالإقرار والتَّسليم. ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في (مصر) من نسب الملوك للآلهة. ثمَّ على القهر، الذي لا يدع لرأسٍ أن يفكر، ولا للسانٍ أن يُعبِّر. وهم يرونه بشرًا مثلهم يحيا ويموت، ولكنَّه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب! ثمَّ يتظاهرُ بالجدِّ في معرفة الحقيقة، والبحث عن إله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يلهو ويسخر: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾..في السَّماء. كما يقول وبلهجة التَّهكم ذاتها يتظاهر بأنَّه شاكٌّ في صدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنَّه مع هذا الشَّكِّ يبحث وينقِّبُ ليصل إلى الحقيقة: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾! وفي هذا الموضع كانت حلقة المباراة مع السَّحرة. وهي محذوفة هنا للتَّعجيل بالنِّهاية..﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٣٩]"[2].

كما يستفاد أن عدم الدَّليل لا يستلزم عدم المدلول.

---

(١) انظر: الكشاف (١٨٠/٣)، ابن عادل (٢٦١/١٥)، روح المعاني (٨٢/٢٠)، الرَّازي (٦٠٠/٢٤)، تفسير النَّيسابوري (٣٤٣/٥)، النسفي (٦٤٥/٢)، البحر المديد (٢٥٣/٤).

(٢) الظِّلال (٢٦٩٤/٢٠ -٢٦٩٥).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان العاقبة والمآل: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩]، أي: فائتين عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، أي: فارِّين منه، بل أدركهم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

والحاصل أنَّه يقال في هذه الصِّيغة من النِّداء ما قيل في السَّابقة من العبر والعظات من حيث الاعتبار ببيان عاقبة الظَّالمين المستكبرين.

٤ - نداء السَّامري:

وأمَّا نداء السَّامري[١] ففي موضع واحد من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

[طه:٩٥]

والخطاب من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث ترك هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومال إلى السَّامري[٢].

---

(١) و(السَّامري): قيل اسمه هارون، وقيل اسمه موسى بن ظفر، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه من قوم كانوا يعبدونَ البقر، وقيل: كان رجلا من القبط. وكان جارًا لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيمًا من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف (بالسَّامرة)، وهم معروفون بالشَّام. قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان من أهل (كرمان). وقيل: كان من أهل (باجرما). انظر: أضواء البيان (٧٨/٤)، تفسير الطَّبري (٦٦/٢- ٦٧)، تفسير ابن كثير (٣١٣/٥)، تفسير القرطبي (٢٣٤/١١)، الدُّر المنثور (٥٨٨/٥)، الكشاف (٥٥١/٢)، تفسير أبي السُّعود (٣٤/٦)، البحر المحيط (٣٦٧/٧)، زاد المسير (١٧٣/٣)، التَّحرير والتَّنوير (٢٨٠/١٦-٢٩٤)، ابن عادل (٣٥٠/١٣)، النُّكت والعيون (٥٩/٣)، تفسير البيضاوي (٣٥/٤)، السمعاني (٣٥٣/٣). و(باجرما): قرية من أعمال البليخ قرب (الرَّقة)، من أرض الجزيرة. (ياقوت). ويقال: موضع قبل نصيبين (معجم ما استعجم) (٢٢٠/١)، وانظر: معجم البلدان (٣١٣/١).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٢٨٦/١).

قال قتادة: كان السَّامري عظيمًا في بني إسرائيل، ولكن عدوَّ الله عَزَّوَجَلَّ نافق بعد ما قطع البحر مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلمَّا مرَّت (بنو إسرائيل) بالعمالقة، وهم يعكفونَ على أصنامٍ لهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، فاغتنمها السَّامري، وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتَّخذ العجل[١]. فقال له موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بصيغة النِّداء: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه:٩٥]، أي: ما شأنك وما قصتك؟! وهذه الصِّيغة تشير إلى جسامة الأمر، وعظم الفعلة.

وخطابه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إيَّاه بذلك ليظهر للنَّاس بطلان كيده باعترافه، ويفعل به وبما أخرجه ما يكون نكالًا للمفتونين، ولمن خلفهم من الأمم[٢].

عاشرًا: نداء المخلوقات الأخرى غير الجمادات (نداء النملة):

أما نداء النَّملة للنَّمل ففي موضع واحد: [النَّمل:١٨].

١ - بيان المعنى:

أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل:١٨]. فإن قال قائل: كيف صلح أن يجمعوا بالواو والنُّون، وإنما سبيل الواو والنُّون أن يكونا للنَّاس؟ قيل له: العلَّة في هذا أنَّهنَّ وصفنَ بوصفِ النَّاس، وأجرين مجرى النَّاس، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ فأثبتت الواو في فعل (النَّمل)؛ لأنَّهنَّ وصفنَ بالقول، والقول سبيله أن يكون من النَّاس. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ

(١) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٢٣٩).

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (٦/٣٨)، روح المعاني (١٦/٢٥٢)، الدُّر المنثور (٦/٤٣٧)، تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣٠٠٥)، تفسير القرطبي (١١/٢٣٩)، تفسير الماوردي (٤/٢٦٤)، البحر المديد (٣/٤١٥)، الهداية إلى بلوغ النِّهاية (٧/٤٦٩٣).

أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤]، فقال: ﴿سَاجِدِينَ﴾، ولم يقل: (ساجدات)؛ لأنَّه وصفهن بمثل وصف النَّاس(١).

ومن سنن العرب أن تُجْرِيَ الموات وما لا يَعْقِل في بعض الكلام مجرى بني آدم. فيقولون في جمع أرض: (أرضون). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣]، و﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٥]، و﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤](٢).

و﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل:١٨]، و﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء:٩٩].

وفي (تفسير الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]: أي: البهائم الإبل والبقر والغنم فتلعن عصاة بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذا أجدبت الأرض، فإن قال لنا قائل: وما وجه الذين وجهوا تأويل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ إلى أنَّ اللَّاعنين هم: الخنافس والعقارب، ونحو ذلك من هوام الأرض، وقد علمت أنها إذا جَمعتْ ما كان من نَوع البهائم، وغير بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنما تجمعه بغير الياء والنُّون وغير الواو والنُّون، وإنما تجمعه بالتاء، وما خالف ما ذكرنا فتقول: (اللَّاعنات) ونحو ذلك؟ قيل: الأمر وإن كان كذلك فإنَّ من شأن العرب إذا وصفت شيئًا من البهائم أو غيرها مما حكم جمعه أن يكون بالتَّاء وبغير صورة جمع ذُكْرَانِ بني آدم بما هو من صفة الآدميين أن يجمعوه جمع ذكورهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:٢١] فأخرج خطابهم على مثال خطاب بني آدم إذ كلمتهم وكلموها، وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾، وكما قال: ﴿وَالشَّمْسَ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨٧/٢)، تفسير السَّمعاني (٧/٣)، الخازن (٢٦٢/٣)، الكشف والبيان (٣٠/٢)، البغوي (٤٧٥/٢)، الخازن (٥١١/٢)، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس (٣٣٨/١)، وانظر: مغني اللَّبيب (ص:٤٧٨)، والخصائص (٢٢/١).

(٢) انظر: كتاب الكليَّات (ص:٤٩)، وانظر: المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها (٢٦٨/١)، لسان العرب، مادَّة: (أرض) (١١١/٧).

وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وقال آخرون: عنى الله عَزَّوَجَلَّ ذكره بقوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾: الملائكة والمؤمنين. وذكر من قال ذلك"[1].

٢ - فوائد تتعلَّق بالآية:

وهنا فوائد تتعلَّق بالآية، وما فيها من النِّداء فإنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ قد جمع في هذه اللَّفظة (أحد عشر) جنسًا من الكلام: نادت، وكنَّت، ونبَّهت، وسمَّت، وأَمَرَتْ، وقصَّت، وحَذَّرت، وخَصَّت، وعمَّت، وأشارت، وعذرت. فالنِّداء: ﴿يَا﴾، والكناية: ﴿أَيُّ﴾، والتَّنبيه: ﴿هَا﴾، والتَّسمية: ﴿النَّمْلُ﴾، والأمر: ﴿ادْخُلُوا﴾، والقصص: ﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾، والتَّحذير: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، والتَّخصيص: ﴿سُلَيْمَانُ﴾، والتَّعميم: ﴿وَجُنُودُهُ﴾، والإشارة: ﴿وَهُمْ﴾، والعذر: ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾، فأدت خمس حقوق حقَّ الله عَزَّوَجَلَّ، وحقَّ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وحقَّها، وحقَّ رعيتها، وحقَّ جنود سليمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ[2].

٣ - إجمال ما يستفاد:

دلَّ هذا الخطاب من النَّمل وفهم داود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لندائها على أنَّ عالم النَّمل عالم له خصائصه وطبائعه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام:٣٨].

ومما يدلُّ على ذلك أيضًا: ما روى عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ**[3]

---

(١) تفسير الطَّبري (٣/٢٥٦)، تفسير أبي السُّعود (١/١٨٢)، الرازي (٤/١٤١)، تفسير النَّيسابوري (١/٤٤٨)، ابن عادل (٣/١٠٧).

(٢) الإتقان (٢/١٤٨)، الكليَّات (ص:٣٢٤).

(٣) أي: متاعه.

فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: فَهَلاَّ نَمْلَةً وَاحِدَةً))[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنْ الأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنْ الأُمَمِ تُسَبِّحُ))**[2].

والشَّاهد أنَّ النَّمل أمَّةٌ من الأمم تسبِّح الله عَزَّوَجَلَّ مثل بقية الحيوانات. وقد نهى النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن **((قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةُ وَالنَّحْلَةُ وَالْهُدْهُدُ وَالصُّرَدُ))**[3].

فلا يجوز قتل النَّمل إلا المؤذي[4].

الحادي عشر: نداء الجمادات:

نداء الأرض والسَّماء: [هود:٤٤].

نداء النَّار: [الأنبياء:٦٩].

نداء الجبال: [سبأ:١٠].

---

(١) أخرجه البخاريُّ [٣٣١٩]، ومسلم، [٢٢٤١].

(٢) أخرجه البخاريُّ، [٣٠١٩]، ومسلم، [٢٢٤١].

(٣) أخرجه أبو داود، [٥٢٦٧]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن ماجه [٣٢٢٤]، وأحمد [٣٠٦٦]، والدَّارمي [٢٠٤٢]. والحديث صحيح. انظر: البدر المنير (٣٤٥/٦)، الإلمام بأحاديث الأحكام (٤٤٤/٢)، التَّلخيص الحبير (٥٨٤/٢، ١٠٩٣)، خلاصة البدر المنير (٣٥/٢، ١٣٨٦). و(الصُّرَد): طائر فوق العصفور، وقيل: طائر أبقع ضخم الرأس يكون في الشجر، نصفه أبيض ونصفه أسود، ضخم المنقار، له برثن عظيم. انظر: مادَّة: (صرد) (٢٨٤/٣)، وكذلك انظر: العين، مادَّة: (صرد) (٩٧/٧)، المغرب (٤٧١/١).

(٤) انظر على سبيل المثال: حاشية العدويِّ على شرح كفاية الطَّالب (٦٥٧/٢)، بغية المسترشدين (ص:٥٥١)، كتاب الفروع ومعه تصحيح الفروع (٥١١/٥)، المبدع شرح المقنع (٩٠/٣).

١ – نداء الأرض والسَّماء:

أمَّا نداء الأرض والسَّماء فقد جاء في آية واحدة، وهي قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:٤٤].

وأورد هنا إلى ما يتعلَّق بنداء الجمادات، فإنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِيلَ﴾، يدلُّ على أنَّه سبحانه في الجلال والعلوِّ والعظمة، بحيث أنَّه متى قيلَ قيلٌ لم ينصرف العقل إلا إليه، ولم يتوجَّه الفكر إلَّا إلى أنَّ ذلك القائل هُو هو. وهذا تنبيه من هذا الوجه على أنَّه تقرَّر في العقول أنَّه لا حاكم في العالمين ولا متصرِّف في العالم العلويِّ والعالم السُّفليِّ إلَّا هو. وإنَّ الحسَّ يدلُّ على عظمة هذه الأجسام وشدَّتها وقوَّتها، فإذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستول عليها متصرِّف فيها كيف شاء وأراد، صار ذلك سببًا لوقوف القوَّة العقليَّة على كمال جلال الله عَزَّوَجَلَّ وعلوِّ قهره، وكمال قدرته ومشيئته. والسَّماء والأرض من الجمادات، ويدلُّ ذلك على أنَّ أمره وتكليفه نافذٌ في الجمادات[(١)].

وهل النِّداء هنا مجاز أم حقيقة؟

قيل: هذا مجاز؛ لأنها موات. وقيل: جعل فيها ما تميِّز به[(٢)].

وقد سبق بيان ذلك وتحقيق القول الرَّاجح في (بيان من الذي ينادى؟).

أمَّا (ما ولي المنادَى) فقد ذكر النَّيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه "استعار لغور الماء في الأرض (البلع) الذي هو إعمال القوَّة الجاذبة في الطُّعوم للشَّبه بين الغورِ والبلع، وهو الذَّهاب إلى مقرٍّ خفيٍّ. وجعل قرينة الاستعارة نسبه الفعل إلى المفعول، وفي جعل الماء مكان

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (١٧/٣٥٣)، وانظر: تفسير ابن عادل (١٠/٤٩٩).

(٢) انظر: القرطبي (٩/٤٠)، وكذلك ينظر تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَايِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

الغذاء أيضًا استعارة؛ لأنَّه شبَّه الماء بالغذاء لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزُّروع والأشجار تقوي الآكل بالطَّعام، وجعل قرينة الاستعارة لفظة: ﴿ابْلَعِي﴾؛ لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء. ثمَّ أمر الجماد على سبيل الاستعارة للشَّبه المقدم ذكره، وخاطب في الأمر دون أن يقول ليبلع ترشيحًا لاستعارة النِّداء[1]؛ إذ كونه مخاطبًا من صفاتِ الحيِّ، كما أنَّ كونه منادى من صفاته. ثمَّ قال: ﴿مَاءَكِ﴾ بإضافة الماءِ إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهًا؛ لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك. واختار ضمير الخطاب دون أن يقول: (ليبلع ماؤها) لأجل التَّرشيح المذكور. ثمَّ اختار مستعيرًا لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشَّبه بينهما في عدم ما كان، ثمَّ أمر على سبيل الاستعارة، وخاطب في الأمر لمثل ما تقدَّم في ﴿ابْلَعِي﴾ من ترشيح استعارة النِّداء"[2]. وقد ذكر النَّيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3] أنَّ (نداء الأرض)، و(نداء السَّماء)..من المجاز لا من الحقيقة..وقد هو عكس ما قد رجَّحته آنفًا.

والحاصل أنَّ الآية تتضَّمن أوجهًا من البلاغة ذكرتُ منها في (الإقناع) ما يزيد على (اثنين وعشرين) وجهًا[4].

---

(١) الاستعارة المرَشَّحة ما ذكر معها ملائم المشبَّه به، والمجرَّدة ما ذكر معها ملائم المشبَّه، والمطلقة ما خلت من ملائم المشبَّه به أو المشبَّه..ولا يعتبر التَّرشيح والتَّجريد إلا بعد أن تتمَّ الاستعارة باستيفائها قرينتها لفظيَّة أو حاليَّة؛ ولهذا لا تسمَّى قرينة التَّصريحيَّة تجريدًا؛ لأنَّه قد ذكر المشبَّه نفسه، ولا قرينة المكنية ترشيحًا؛ لأنَّ المرشَّحة فيها ملائم المشبَّه، أمَّا المكنية ففيها لازم من لوازمه، وثَمَّة فرق بينهما. وهنا المشبَّه: غور الماء، والمشبَّه به: البلع، ووجه الشَّبه: الذَّهاب إلى مقرٍّ خفيٍّ، والقرينة نسبة الفعل إلى المفعول...كما شبَّه الماء بالغذاء، فالماء مشبَّه، والغذاء مشبَّه به، والتَّرشيح نداء الجماد، والملائم البلع....

(٢) تفسير النَّيسابوري (٢٥/٤)، وانظر: تفسير النسفي (٦٢/٢)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (١٠٠/٥)، تفسير المنار (٧٩/١٢).

(٣) انظر: المصدر السَّابق (٢٥/٤).

(٤) انظر: الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسِّر (٣٧٥-٣٨٢)، وينظر: البرهان في علوم القرآن (١٠٢/٢)، الإتقان (١٢١/٢)، (٢٢٧/٣)، دلائل الإعجاز (ص:٩١-٩٢)، مقدِّمة تفسير ابن النَّقيب (ص:٣٩٧)، و(ص:٣٧٠).

٢ - نداء النَّار:

وأمَّا نداء النَّار فقد جاء في قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، ويستفاد من هذا النِّداء أمور منها: أنَّ الطَّبيعة لا تؤثِّرُ في شيءٍ إلا بمشيئته عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ النَّار مع شدَّةِ طبيعة الإحراق فيها ألقى فيها الحطبُ وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا شكَّ أنَّ الحطبَ أصلبُ وأقسى وأقوى من جِلد إبراهيم عَزَّوَجَلَّ ولحمه، فأحرقت الحطبَ بحرِّها، وكانت على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بردًا وسلامًا، فسبحان من لا يقعُ شيءٌ كائنًا ما كان إلا بمشيئته عَزَّوَجَلَّ، فعَّال لما يريد. ولو شاء الله عَزَّوَجَلَّ تخلُّف تأثيرِ الأسباب عن مسبّباتها لتخلَّف. فإنَّ طبيعةَ الإحراق في النَّار معنى واحد لا يتجزَّأ إلى معانٍ مختلفة، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رمادًا من حرِّها في الوقت الذي هي كائنة بردًا وسلامًا على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. فدلَّ ذلك دلالة قاطعة على أنَّ التَّأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السَّموات والأرض عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه يسبِّب ما شاء من المسبِّبات على ما شاء من الأسباب، وأنَّه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته عَزَّوَجَلَّ[(١)].

"وقد أظهر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك معجزة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذ وَجَّه إلى النَّار تعلُّقَ الإرادة بسلب قوَّة الإحراق، وأن تكون بردًا وسلامًا إن كان الكلام على الحقيقة[(٢)]، أو أزال عن مزاج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّأثر بحرارة النَّار إن كان الكلام على التَّشبيه البليغ[(٣)]، أي: كوني كبرد في عدم تحريق الملقَى فيك بحَرِّك. وأمَّا كونها سلامًا فهو حقيقة لا

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٣٤٢)، (٢٠/٧٦).

(٢) أي: لو كان الخطاب للنَّار لكان المعنى أنَّها تحوَّلت إلى بردٍ لانقلاب الحقيقة. أمَّا لو بقيت النَّار نارًا على حقيقتها ولكنَّها كانت كالبرد على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من حيث عدم التَّأثر فإنَّ المعنى يكون كوني كبرد في عدم تحريق الملقَى فيك بحَرِّك فحذف أداة التَّشبيه ووجه الشبه.

(٣) هو التَّشبيه الذي لم تُذْكر فيه أداة التَّشبيه، ولم يُذْكَر فيه أيضًا وجْه الشَّبه. نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]. ومن التَّشبيه البليغ المصدر المضاف المبيِّن للنَّوع نحو: (راغ روغان الثَّعلب)، ومنه أيضًا إضافة المشبَّه به للمشبَّه نحو: (لبس فلانٌ ثوبَ العافية)...

محالة[1]، وذِكر ﴿سَلامًا﴾ بعد ذكر البرد كالاحتراس؛ لأنَّ البرد مؤذٍ بدوامه ربما إذا اشتد، فعُقِّب ذكره بذكر السَّلام لذلك"[2].

وأمَّا (ما أعقب المنادى) من الأمر فإنَّ هذه هي الكلمة التي تكوَّن بها أكوان، وتنشأ بها عوالم، وتخلق بها نواميس: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فلا نسأل: كيف لم تحرق النَّار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ والمشهود المعروف أنَّ النَّار تحرق الأجسام الحيَّة؟! فالذي قال للنَّار: كوني حارقةً هو الذي قال لها: كوني بردًا وسلامًا. وهي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول. مألوفًا للبشر أو غير مألوف.

إنَّ الذين يقيسونَ أعمال الله عَزَّوَجَلَّ إلى أعمال البشر هم الذين يسألون: كيف كان هذا؟ وكيف أمكن أن يكون؟ فأمَّا الذين يدركون اختلاف الطَّبيعتين، واختلاف الأداتين، فإنهم لا يسألون أصلًا، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلًا علميًّا أو غير علميٍّ. فالمسألة ليست في هذا الميدان أصلًا. ليست في ميدان التَّعليل والتَّحليل بموازين البشر ومقاييس البشر. وكلُّ منهج في تصوُّر مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهجٌ فاسد من أساسه؛ لأنَّ أعمال الله عَزَّوَجَلَّ غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود.

إنَّ علينا فقط أن نؤمن بأنَّ هذا قد كان؛ لأنَّ صانعه يملك أن يكون. أمَّا كيف صنع بالنَّار فإذا هي برد وسلام؟ وكيف صنع بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فلا تحرقه النَّار..فذلك ما سكت عنه النَّصُ القرآني؛ لأنَّه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود. وليس لنا سوى النَّص القرآني من دليل.

---

(١) أي: لأنَّه لا يتأتَّى حملها على المجاز لأنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خرج منها سالما في كلِّ الأحوال، أي: سواء تحوَّلت حقيقة النَّار إلى بَرْدٍ أو أزال عن مزاجه التَّأثر....

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٠٦/١٧).

وما كان تحويل النَّار بردًا وسلامًا على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَّا مثلًا تقع نظائره في صور شتَّى. ولكنَّها قد لا تهزُّ المشاعر كما يهزُّها هذا المثل الجاهر. فكم من ضيِّقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة القاضية، وإن هي إلا لفتة صغيرة، فإذا هي تحيي ولا تميت، وتنعش ولا تخمد، وتعود بالخير وهي الشَّر المستطير؟!.

إنَّ ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ لتتكرَّر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم، وفي حياة الأفكار والعقائد والدَّعوات، وإن هي إلَّا رمز للكلمة التي تبطل كلَّ قول، وتحبطُ كلَّ كيد؛ لأنها الكلمة العليا التي لا ترد..

٣ – نداء الجبال:

وأمَّا نداء الجبال فقد جاء في قول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠]، ويقال في نداء الجبال ما قيل في سابقه من نداء الأرض والسَّماء..من عظمة المنادَى – بفتح الدال المهملة–، وانقياده لقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، حيث جعله مسخَّرًا لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد جاء هذا البيان موجَّهًا للمخاطَبين؛ لبيان نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ، وتصريفه في مخلوقاته ما يوضِّح استيلاء قهره وملكه، ويشير إلى عظيم ملكه كما بيَّن في غير موضع أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له ما في السَّموات وما في الأرض. وفي الآية إشارة إلى فضيلة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ. ولقد منَّ الله عَلَيْهِ السَّلَامُ على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وآتاه من العلم النَّافع، والعمل الصَّالح، والنِّعم، ومن نعمه عليه، ما خصَّه به من أمره عَزَّوَجَلَّ الجمادات، كالجبال، والحيوانات من الطُّيور أن تُؤَوِّبَ معه، وتُرَجِّع التَّسبيح بحمد ربها عَزَّوَجَلَّ، مجاوبةً له، وكان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده.

ومن فائدة ذلك أن يكون محفِّزًا ومنهضًا له ولغيره من المخاطَبين على التَّسبيح؛ فإنَّهم إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات، تتجاوب بتسبيح ربها عَزَّوَجَلَّ، وتمجيده، وتكبيره، وتحميده، كان ذلك مما يهيِّج على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ. فقد جاء في القرآن قول الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، ومن المعلوم أنَّ (النَّكرة في سياق النَّفي والنَّهي تعمُّ).

وفي خطاب الجماد إشعارٌ بأنَّه ما من صامتٍ ولا ناطقٍ إلا وهو منقادٌ لمشيئته.

وقد أَلانَ الله عَزَّوَجَلَّ له الحديدَ كالشَّمع والعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مِطْرَقَةٍ، وذلك في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ يسير، أو لانَ الحديدُ في يده لما أوتي من شدَّة القوَّة.

وهل تُسبِّح حقيقةً أم بظهورِ أثر الصَّنعة فيها، ودلالتها على وجود الخالق عَزَّوَجَلَّ؟ للمفسِّرين قولان. وقد سبق تحقيق أنَّ تسبيح الجبال والطَّير مع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ تسبيح حقيقي، يجعل لله عَزَّوَجَلَّ لها إدراكاتٍ تسبِّح بها، يعلمها هو عَزَّوَجَلَّ ونحن لا نعلمها.

٤ – النَّتائج المستفادة:

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ الصِّيغة التي فيها (**نداء الأرض والسَّماء**) تدلُّ على عظمة المنادِي –بكسر الدال المهلمة–، وأيضًا تدلُّ على عظمة المنادَى –بفتح الدال المهملة–، وأنها أجسام عظيمة مخلوقة، وأنها على عظمها خاضعةٌ لقدرة الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته، وأنَّ الجمادات تؤمر وتنقاد..

وأمَّا (**نداء النَّار**) فيدلُّ على عظمة المنادَى –بفتح الدال المهملة–، وقوَّة تأثيره في المخلوق البشري، ومع ذلك فهو لا يؤثر في شيءٍ إلَّا بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو خالقُ الأسباب والمسبِّبات، ولو شاء تخلُّفَ تأثير الأسباب عن مسبِّباتها لفعل، وذلك يدلُّ على قدرته، كما يدلُّ على مكانة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتأييد الله عَزَّوَجَلَّ له، كما يستفاد أنَّ البونَ شاسعٌ بين صفاتِ الخالق عَزَّوَجَلَّ، وصفات المخلوق. كما يجب الإيمان والتَّسليم بذلك كلِّه، وأن لهذا الإيمان، ولهذه القصَّة من الأثر ما ينعكسُ في نفوسِ المخاطَبين وأفعالهم، وأنَّ الحقَّ لا بدَّ أن يعلو وينتصر..